علاء مهنا

أين المعنى؟

أين المعنى؟! هكذا كان يتساءل ذلك الفتى المسكين، ذو العينين السوداوين اللتين تنضح منهما الحسرة والحيرة والقلق من مستقبل بائس رغم حاضره الذي لم يتجاوز الثمانية عشر عامًا، عقارب الأمل تداعب خوفه من المجهول، ومازالت الأسئلة تتشابك داخل نفسه، وتتعقّد بفضل عقله، فتصبح أكثر تركيبًا بحيث يدرك أنه في النهاية لن يصل إلى شيء، ولا تنفك طلاسمها حتى بذلك المجهود المضني من التأمل والتفكير في مصير قلبه الذي تحجرت مشاعره، فلم تواسِ فيه ضعفه وهشاشة أحلامه المبتور منها سر البراءة، لقد لوّثته الفلسفة، فهي تسأل ولا تجيب، تأخذ ولا تعطى،

باعت له اللاشيء مقابل طمأنينته وسكينته، فضلا عن أنّها قضت على بساطة نفسه بسبب تلك الانحرافات المشوّهة بفضل مثاليته التي آمن بها قديما، هو لم يعد يقوى على الحياة، واكتهل الحزن بداخله، وفى سويداء فؤاده سكن، وملأ تجاويفه، حتى دموعه الساخنة التي كانت تنزل لتهجو قسوة الزمان وبؤس الأيام تخلّت عنه، فلم تعد تفيض ولا تغيض، وبقيت عالقة بين جفنيه، ليعلن بريقها، أنه لا جدوى من التذلل لمن لا يسمع ولا يرى، فالوجع الذي بداخله قد اتكأ على جرح عميق غائر في عزة نفسه التي أقسم على برها وإلى الأبد، اليوم لم يبرأ بعد من الصداع الذي صاحبه سنين، فكان لا يفارقه إلا ليعود إليه، ولم تتب عنه الدوخة التي يبدو وكأنها أمنت برأسه سكنا وملاذا، دهشته مما يحدث له أكبر من أن تصفها الكلمات أو الأحاسيس،

لقد قرر الاستسلام.. لكنّه استسلام كامل غير منقوص، فنصف الاستسلام جحيم، ونصف المقاومة عبث، راحة في نفسه تجعله يبتسم بحرقة، لأنها لن تستمر طويلا، حتى أنه قد نسي مذاقها، فأضحت غريبة عليه، لا يفقه ولا يعي ولا يفهم معناها ولا يعرف حلاوتها، أصبح غريبًا عليه أن يفرح أو أن يجد للسعادة طريقا إليه. وبينما هو كذلك، إذ وجد نفسه يمشي في منتصف طريق خالٍ من الناس تماما، فجلس يبكي تحت ظل شجرة ساقتها له الصدفة، لتحنو عليه لا من حر الشمس التي في كبد السماء، وإنّما من عذاب الضمير ونار اليأس وقلة الحيلة ومرارة العجز، ماذا بك أيها الصغير؟ جاءه هذا الصوت الذي دلّت نبرته الهادئة من خلفه، وهيئته التي تقوس فيها ظهره على أنه شيخ كبير يظهر عليه الوقار، ليخبره أن الدنيا مازالت بخير، وليهدهد فيه وحدته. بابتسامة حزينة يكسوها الاستنكار أجابه الفتى:

- وما الفائدة يا سيدى من الكلام؟
- حتى ترتاح من كبت ما يؤلمك.
- الألم لا تصفه الكلمات، ولا يزيحه البوح!
- ثم بادره الفتى بسؤال:
- أيها العجوز، أين المعنى؟
- فى داخلك.

- وكيف أجده؟
- عندما تتجرد.
- أنا لم أختر حياتي.
- ولكن بإمكانك أن تحدث تغييرًا.
- السعادة تساوي الموت.
- لكن ما أجمل أن يكون الموت حياة.
- ما الحكمة من كل تلك الحروب والشرور والأمراض؟
- أن تحتار حتى تصل.
- وما ذنبي ؟
- بل هذا قدرك.
- هل ما أبحث عنه سراب؟
- بالعكس يا ولدى.. بل ما تبحث عنه هو طريق العظماء الذين قرروا أن يكونوا ما أرادوا.
- وكيف أفعل يا شيخ حتى أنجو؟
- أن تؤمن بالنجاة أكثر من إيمانك بالغرق.
- لكن إرادتى صفرية.
- الصفر قيمته كبيرة جدا بجانب الدافع.. إنه البداية.

- أحتاج أن أعود طفلا لا يأبه لشيء!

- لا تبتز الوهم، فهو لن يسوق إليك ما تهوى، إنّما أنت ابن الواقع.. ابن اللحظة الحرجة الحالية، وكونك لا تفهم فهذا يعود إلى قدرتك البارعة في العيش على أحلام الماضي، وخيالات ذلك الصبي، فيصنع الدنيا على مثال أساطيره، بعيدًا عن الحقائق.

- هل أنا في طريقي للجنون؟

- بل في طريقك إلى غايتك.

- لكنها رحلة شاقّة ومتعبة إلى حد اللاوصف.

- هذا ثمن الإدراك يا ولدي.

- لقد تعبت وأثقلتني همومي.

- لا تركن إلى اليأس.

- والحل؟

- أن تحاول.

- وماذا إن سقطت؟

- تحاول مرة ثانية وثالثة و....

.صمت يهيمن على المكان، وفجأة إذا بالشمس تختفي، ويختفي معها النور، ويحل الظلام الدامس ضيفا مخيفا، ليجد الفتى نفسه وإياه وحيدين على سريره الذي احتوى رعبه، بعدما قام من نومه مفزوعًا، يتحسس كل ما حوله ليتأكد أنّها رؤية هدهدت فيه ما كان يبحث عنه..